أوباما وسياسة الجماهير

البروفيسور فؤاد عجمي
أستاذ دراسات الشرق الأوسط في كلية الدراسات العالمية العليا
في جامعة جون هوبكنز

صحيفة وول ستريت جورنال الأمريكية

30 أكتوبر 2008

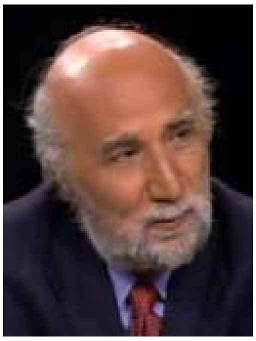

THE WALL STREET JOURNAL

Obama and the Politics of Crowds

by **Fouad Ajami**

The Wall Street Journal

ترجمة: علي الحارس

ثمة أمر غريب، وأجرؤ أن أقول بأنه الأول من نوعه، يحدث في عالم السياسة الأمريكية في ما يتعلق بالجماهير التي خرجت لتحية أوباما في حملته الرئاسية. فإلى يومنا هذا، لم تكن الجماهير ميزة دائمة للسياسة الأمريكية، حتى إننا نربطها بسلوكيات مجتمعات العالم الثالث، كما يحصل في أماكن كالأرجنتين ومصر وإيران، حيث تحتشد أعداد كبيرة من البشر بتأثير تحمسها لبيرون وعبدالناصر والخميني. وفي هذا النوع من المجتمعات تخرج الجماهير لتؤكد إيمانها بمخلّص ما: شخص يصحح أوضاع العالم.

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

أوباما وسياسة الجماهير

لقد لاحظ الكاتب الألماني الياس كانيتي[1] في كتابه المهم (الجماهير والسلطة)، أن كيان الجماهير يتأسس على وهم من المساواة: فتسعى باحثة عن اللحظة «التي تذوب فيها الفوارق ويصبح الجميع متساوين. ومن أجل هذه اللحظة المباركة، عندما لا يكون أحد أعظم أو أحسن من الآخر، يصبح الناس جماهير». وهذه الجماهير التي خرجت بعشرات الآلاف في مدن سانت لويس ودنفر وبورتلاند لتحية ممثل مبادئ الحزب الديمقراطي، إنما تعد مقياسا لمدى الضيق الذي تحس به.

على المستوى الظاهري لا يوجد ما يتفوق به السيناتور باراك أوباما على غيره. فهو عقلاني على نحو ما، ويبدو عليه مظهر النزيه، وفي لسانه بلاغة ولكن بحدود. فبعد حوالي سنتين من بداية حملته يستطيع جمهوره أن يتوقع ما سيقوله ويردد خلفه نلك المقولات. إن الأهمية السياسية التي يتفرد بها الرجل تتمثل في أنه صفحة خالية يستطيع مؤيدوه أن يسطروا فيها ما يرغبون به. أما التحالف الذي أطلق حملته، وهم مجموعة من الأمريكيين السود وأثرياء من البيض الليبراليين، فليس لديهم مفاهيم اقتصادية مشتركة. ولكن الآن يوجد وهم مسؤولية مشتركة، وهو ما أشار إليه كانيتي بشعور المساواة ما بين الجماهير، وتاليا سيكتشف الأثرياء أن عليهم أن يدفعوا تكاليف البرامج التي وعد بها الفقراء. إن أجندة إعادة توزيع الثروة التي تستند إلى رؤية أوباما هي على النقيض تماما من سلوك المستثمرين المجازفين في سيليكون فالي والمدراء الذين ينسقون أعمالهم ويعتاشون من مهنهم الحساسة. فهؤلاء يؤمنون بأخلاقيات المنافسة وعدالة الأموال التي تأتي عبر المخاطرة والاجتهاد. لكن كل ذلك أشيح النظر عنه بإصرار مؤيدي أوباما على ترشيح شخص كانت عضويته في الكونغرس دفاعا دائما عن السيطرة على السوق وتنظيم جهود الجهات التي تؤمن بتخصيص العائدات وإعادة توزيع الثروة.

إن أوباما، باعتباره مخلوقا صنعته الجامعات والكنائس والمراكز غير الربحية، وبمؤازرة

1) الياس كانيتي (Elias Canetti): فيلسوف وروائي بريطاني (1905-1994)؛ حاز على جائزة نوبل في الآداب عام 1981. ركز كانيتي جهوده ومؤلفاته على البحث في سلوك الجماهير في العصر الحديث.

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

مؤيديه الأثرياء وطاعتهم المطلقة، استطاع أن ينزلق متجاوزا تلك الفوارق الصعبة. وفي الظاهر يبدو أن مؤيديه الأثرياء جاهزون لتحمل أعباء فاتورة النظام الجديد، أو أنهم مقتنعون بأن النظام القديم سيصمد بعد فوزه في الانتخابات، وأن أوباما سينتهج طريقا وسطيا. لقد لعبت الضبابية دورا فعالا لخدمة هذا المرشح المحظوظ: فهو يطرح أفكارا عديدة لأصناف عديدة من الناس، ولم يكن هنالك ما يلزمه بأن يخبر هذا التحالف، الذي يعج بألف خلاف وألف رؤية، ما تتضمنه تفاصيل برنامجه السياسي: إعادة توزيع الثروة لصالح الفقراء، والقضاء على العنصرية العرقية وتحقيق «تحديث» في صفوف الطبقات العليا.

وليس من قبيل الصدفة أن الطبقة العاملة من البيض كانت آخر من يلتحق بحملة أوباما، فحساسيتهم منه لم تكن ذات مبرر عرقي، وإنما جاءت من كونهم رجالا ونساء يؤمنون بالواقع العملي، فهم لا يثقون بالخطب، ويمكنهم أن يروا ما وراء الوعود الوهمية بالتكافل والتلاحم التي أطلقتها حملة أوباما. إنهم لا يملكون الكثير من المال، لكنهم يؤمنون بشرعية القليل الذي كسبوه. إنهم يرون قيمة في العمل وعوائده. كما علموا وسمعوا بالثروات الكبيرة التي جناها «سادة العالم»، لكنهم يؤمنون بالفوائد التي تجلبها لهم الحياة الاقتصادية. لقد أدى الإعصار الاقتصادي الذي ضرب أمريكا قبل أسابيع إلى هز هذه الطبقة من الجذور، وهم يبحثون عن الحماية تحت عباءة الدولة والوعد بالإصلاح الاقتصادي. إن أفراد هذه الطبقة لم ينزعجوا من الثروات التي يجنيها أصحاب المؤسسات الاقتصادية الكبرى، وإنما أقلقهم منظر تلك المؤسسات وهي تذوب أمام أعينهم.

لقد أوضح السيناتور الراحل دانييل موينيهان[1] الفرق ما بين الرأسمالية الأمريكية ونظيرتها الأقدم في أوروبا من خلال الإشارة إلى أن أمريكا كانت تنحاز دائما إلى الحرية، بينما كانت أوروبا تنحاز إلى المساواة. وفي وقت مناسب لترشيح أوباما، بدأ إيمان أمريكا بالحرية يتزعزع. وزاد حالة الهلع سوءا ما ادعاه بعض الوعاظ من انهيار دور أمريكا في النظام

1) دانييل موينيهان (Daniel Patrick Moynihan): سياسي أمريكي (1927-2003)؛ عمل في إدارات عدد من الرؤساء الأمريكيين، واختير سفيرا في الهند (1973-1975)، وسفيرا في الأمم المتحدة (1975-1976)، وعضوا في مجلس الشيوخ عن الحزب الديمقراطي (1977-2001).

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

العالمي، وأن أيام الخير قد ولت، وأن الشمس غابت عن امبراطوريتنا لتطلع في مكان آخر.

هاهو هذا الشاب، «ظريف» ورابط الجأش، يحمل في سيرته الذاتية روابط بدول بعيدة عن أمريكا، وأعطي الفرصة ليكون رسول التغيير فيها. إن الجماهير قد تخاطر بدخول هذه التجربة، فتبدأ مما تحمله من حقد ورغبة في الانتقام. وكما هو الحال في العواطف والرغبات التي أدت إلى تشكيل وتوجيه مجتمعات شديدة الاستقطاب، فإن هذه الانتخابات تحمل في جوهرها رغبة بتصفية حساب الانتخابات التي جرت قبل ثماني سنوات، ففي رأي تلك الجماهير أن جورج بوش استولى على الرئاسة عام 2000، وذلك على الرغم من وجود عدد لا يحصى من منتقدي هذا الرجل ومنتقصيه، وهم يرون أنه أخذ ما ليس له بحق، ويغيضهم أكثر أنه كان خلال رئاسته صارما رابط الجأش، وأنه استثمر وقته في السلطة مثابرا على جهوده في حقبة طامحة لبسط سلطة أمريكا خارج حدودها، وأنه شن حربا مغرضة في العراق.

إن هذه الانتخابات هي جولة الترجيح التي لم يحصل عليها المرشح الديمقراطي السابق جون كيري عام 2004. وفي تقاليد الجماهير التي تسعى للانتقام وترى فيه عدالة يجتهد مؤيدو أوباما في التغاضي عن الوسائل المستخدمة، وإذا كان المرشح صادقا في دعوته لحكومة أفضل وإنهاء دور المال في الحياة السياسية كما يروج عن أوباما، لكان عليه أن يتخلى عن التمويل الشعبي لحملته الانتخابية في المقام الأول. إذن، ماذا نستنتج من منهجهم؟ الغاية تبرر الوسيلة.

للنجاة في أوقات المحنة كان الأمريكيون دوما متيقظين، وقليلي المطالب حقا، في ما يتوقعونه من الانتخابات الوطنية والحراك السياسي. وكانت أهمية النتائج تتقرر وفق حركة الحياة اليومية، من قبل المخترعين والمجازفين، وأرباب مؤسسات الصناعة والمال. ولضمان سير الأمور كان هنالك عنصر إصرار في هذه الرؤية الوطنية، فكان أن مصير هذه الجمهورية تحدد عبر السياسة والحروب. لكن تلك اليقظة والتشكيك حيال السياسة

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

أوباما وسياسة الجماهير

والقادة أبعد هذه الجمهورية عن الرؤى السياسية التي تجد خلاصها في تجميع الجماهير في الشوارع.

إن فترة صباي، والثقافة السياسية العربية التي كتبت عنها لأكثر من ثلاثة عقود، شديدة الصلة بالعالم العربي، وطالما كانت مأساة الثقافة السياسية العربية تتمثل في أمل الجماهير، أو الشارع كما يشيع على ألسنة العرب، بالمخلّص الذي سيضع نهاية للانهيار ويستعيد ما ضاع من مجد وعزة. أما عن نفسي، ففي نهاية الخمسينات وفترة الستينات من القرن الماضي، كنت أستثمر تلك الآمال في شخصية الرئيس المصري جمال عبدالناصر، ولكنه عجز وخيب آمال أجيال من العرب. لكن الإيمان بمن ينتظرونه لا يزال قائما، وسيظل هذا الإيمان يدفع بالعالم العربي في انتظار المخلّص التالي.

إن أمريكا ليست كهذه الدول، وفي اعتقادي، أمريكا استثنائية في كل النواحي المتعلقة بهذا الأمر، لكن هذه الأيام، ومع ما لأوباما من جماهير واسعة، قد ذكرتني بسياسة الكاريزما التي دمرت المجتمعات العربية والإسلامية، إذ ليس على القائد أن يقول الكثير، أو أن يكون الكثير، فالمهمة تقع على عاتق الجماهير التي تستخدم أقوى ما تملك: خيالها.

أعود إلى كانيتي الذي يقول: «لكن الجماهير، وفق ذلك، تتفكك. وهي تتوقع ذلك وتخاف منه... ولا يفيد غير توسيع الجماهير في الحيلولة دون تفككها وعودة أفرادها وكل منهم يحمل مشكلته الخاصة».

في الصباح الذي يلي الانتخابات، ستبدأ الخيبة بالتغلغل في صفوف جماهير أوباما. فالهزيمة، وإن لم يفكر بها أحد من مؤيديه، ستخيب الآمال، والفوز سيجلب معه شيئا فشيئا اليقظة التي تقول لهم بأن مشاكلنا لن يحلها سحر قائد.

شبكة عراق المستقبل www.iraqfuture.net

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©